الدين في مواجهة العصر

وموقف الثقافة العربية

بقلم الدكتور عفت الشرقاوي

اصبح مقررا لدى علماء الاجتماع والاديان أن الدين جزء جوهري من اية ثقافة بوصفها الانماط المشتركة بين اعضاء المجتمع ، والمؤثرة في سلوك الجماعة . ولقد كان القرآن مصدر الدين الاسلامي وقاعدته الجوهرية ، ومن ثم كان له صلته الواضحة بالمثل الثقافية التي يتطلع اليها مجتمعنا العربي المعاصر .

وسأعرض في هذا الحديث للجانب الديني من ثقافتنا المعاصرة في مواجهة العصر متمثلا في النشاط التفسيري للقرآن الكريم في مصر ، وهو موضوع كان لي شغف بمتابعة نصوصه في مصادرها المختلفة .

أول حقيقة تسلفت النظر في تاريخنا الثقافي ان النص القرآني كان هو الاساس الذي حاول المصلحون او مدعو الاصلاح دعم موقفهم به ، فحيثما هبت أعاصير الزندقة أو الموجات الالحادية كان المفسرون ينهضون لمواجهتها ويفسرون النص القرآني في الرد عليها . بل ظل القرآن قاعدة ثقافية كبرى تشكل النشاط الحضاري في المجتمع العربي على مر العصور لان المفهومات الاساسية في المجتمع الاسلامي ظلت تستمد قيمها من القرآن وتقوم على قاعدته الروحية . ولقد كان القرآن بذلك المرجع العام لنشاط الحضارة الاسلامية .

ظل القرآن رائد المصلحين في نقض الدعوات الدخيلة ورد الزائف من كل جديد . غير ان المفسر القديم خلال مواجهته لموجات العصر المستحدثة كان في كثير من الاحيان يلجأ الى البحث النظري والتجريد الفلسفي لما يعرض له من قضايا بحيث يظل الصراع فكريا دائما . ولكن المفسر الحديث اصبح يميل الى المعالجة العملية والى مواجهة اكبر قطاع من جماهير الامة للاخذ بيده على الطريق . وهو بصفة عامة اكثر من زميله القديم تذكرا لواقع امته ، بل انه يغفل في تفسيره للقرآن تفصيلات بيانية او لغوية اسراعا منه في الهجوم على غرضه التوجيهي ، وتجنيبا للقارىء ان تثقله تفصيلات بلاغية عن متابعة الهدف الذي يحرص على ابرازه .

لاحظ بعض الباحثين بحق أن الجهاد في سبيل الحرية كان الطابع الغالب على الفكر العربي المعاصر ، وهي صفة تنطبق ايضا على كثير من انتاج المفسرين المحدثين ، فلقد واكبت حركة التفسير الحديثة نهضتنا الادبية في هذا المعنى وعاشت مراحلها ، وكان للمفسر دور في ذلك يمثل دور الاديب ، بعد ان استطاع ان يجد في القرآن آيات تبعث في الناس حمية الكفاح من اجل الحق والعدل .

لقد فرضت طبيعة المرحلة التي تعيشها الامة العربية نفسها على المفسر وانتجت هذه النزعة الالتزامية في التفسير . كانت المشكلة الحقيقية التي واجهت الشعوب الاسلامية في مطلع هذا القرن بعد ان وجدت نفسها ضعيفة مفككة ... هي تنظيم جهودها لتقاوم السيطرة الغربية في مجالاتها العسكرية والاقتصادية والثقافية ، ونتج عن ذلك ان شغل الفكر الديني في مصر بغايات عملية عاجلة ذات صبغة قانونية او اجتماعية ، وقل بذلك نصيب القضايا الفلسفية الخالصة في تفسير المحدثين .

ولقد شغف المفكر الديني الحديث بعرض القيم القرآنية عرضا اجتماعيا لاثبات صلاح العقيدة والقرآن لحياة الجماعة البشرية على اختلاف الاجيال والاقاليم ، لينتهي الى القول ان الجماعات التي تدين بالقيم القرآنية تستمد منها حاجتها من الدين الذي لا غنى عنه، ثم لا تفوتها منها حاجتها الى العلم والحضارة ، ولا استعدادها لمجاراة الزمن حيث اتجه بها مجراه .

وقد تمثلت هذه الحقيقة في اتجاهين بارزين من اتجاهات التفسير في مصر في العصر الحديث : اولهما اتجاه يعنى باحياء المفهوم الاجتماعي للكلمة القرآنية ، وثانيهما اتجاه يعنى بربط النظرية العلمية الحديثة بالنص القرآني . وكان هدف الاتجاه الاول العثور على معيار اسلامي تستطيع به ثقافتنا الاصيلة الحكم على القيم الجديدة الوافدة والاستفادة منها في غير جمود ، على حين كان هدف الاتجاه الثاني محاولة العثور على مركب ثقافي نستجمع به شخصيتنا الحضارية بعد شتات .

عنى اصحاب الاتجاه الاجتماعي بقضية الدين والمجتمع ، وعرضوا لمشكلات عديدة مثل صلاحية الاسلام للحياة الحديثة .ولقد شغلوا احيانا بقضايا ذات طابع سياسي مثل الصراع ضد الاستعمار والدعوة الى التحرر من قبضته ، ومثل مسألة نظام الحكم والوحدة العربية والوحدة الاسلامية وكتبوا في قضايا تتصل بالاصلاح الاجتماعي المباشر ، مثل قضية المرأة والنظام الاقتصادي وغير ذلك .

ولا املك في مثل هذا المقام تفصيل البيان لكل هذه القضايا التي تكشف عن جانب ثقافي هام من جوانب العقلية العربية المعاصرة. ولكنني اكتفي هنا بالاشارة الى المفتاح الفكري لكل هذه القضايا ، أعني المعيار الاسلامي الذي نادوا به للحكم على الجديد خلال هذا التغيير الحضاري الشامل الذي تمر به امتهم .

كانت مسألة فتح باب الاجتهاد هي المجال الذي عثر عليه المفكر الديني الحديث لتنفسح له حرية التحرك في مواجهة القيم الجديدة، والثقافة الوافدة والملابسات المتغيرة ، فدعا بعضهم الى الوقوف عند القرآن والسنة في مسائل التشريع ، معللا أن ما اضافته اجيال الفقهاء المتأخرين قد لا يناسب العصر الحاضر ، لانه وضع في ظروف اخرى ، ولا يمكن تثبيته في قالب جامد تجاه جميع المراحل المستقبلية . وبهذا حاول المفسر المحدث ان يكسب موقفه مرونة تسمح له بمناقشة القيم الجديدة التي تتصل بالامور الدنيوية من قضائية وسياسية ، فاما ما يتصل بالبشر في امورهم الروحية من العقائد والعبادات ، فهي لا تختلف باختلاف الزمان والمكان ، وقد احاطت بها النصوص ، فليس لبشر بعد الرسول أن يزيد فيها ، ولا ان ينقص منها شيئا . وما يستنبطه بعض العلماء من الكتاب والسنة في زمان ما ، لا يكلفه ـ تقليدا لمن استنبطه ـ من لم يظهر له ان ذلك من الدين وان كلام الله تعالى او سنة رسوله دالة عليه .

بمثل هذا الموقف حاول المفكر الديني ان يناقش الجديد في شجاعة ، وان يقبل منه ما يتفق مع الاسلام في تفسيره الجديد بعد ان يسبغ عليه شرعية القبول في المجتمع الاسلامي التي يمنحها اياه حق الاجتهاد .

كانت مناقشة مسألة الاجتهاد اذن استجابة من الفكر الحديث لظروف العصر ولم تكن نتيجة جهد مفكر بعينه . ولقد املت هذه الروح مثل هذا الاتجاه على اكثر من مفسر في اكثر من بلد اسلامي . فالمجاهدون الهنود أيضا يرفضون حجية التقليد بين مصادر التشريع ويعتقدون ان هناك من القيم ذات الدلالة النسبية والموقوتة ما اصبح ذا دلالة نهائية مطلقة على ايدي المتأخرين ، وفي رأيهم انه لو فهمت هذه الامور النسبية والموقوتة على انها نسبية وموقوتة لما وقف الاسلام بحال حجر عثرة في سبيل النظم الاجتماعية التي تتطلبها الملابسات والاتصالات الزمنية المتغيرة ، ولا في سبيل تحقيق نتائج البحث

العلمـــي .

روح العصر هنا هي ملابسات الالتقاء بالحضارة الغربية الحديثة، التي أنتجت فيما أنتجت ـ من غير قصد ـ ردود فعل من بينها حركة التجديد الديني بعد ركود طويل . ويبدو ان الفكر الاسلامي بعبقريته الخالدة يمتاز بهذه المرونة الخلاقة ، التي تدعوه دائما الى مراجعة ذاته حين يستشعر الخطر ، فينلمس تصحيحا لمساره التـــاريخي، ليتخلص من زيف تضيفه عليه ظروف التخلف الاجتماعي والسياسي على مر الزمن ، ليعود جديدا نقيا .

كان هذا النقد الذاتي الذي يستلزم معـــاودة الرجوع الى المصدرين الاساسيين في التشريع هو عدة الفكر الاسلامي . ففي العصر العباسي حين انتشرت الزندقة وجدت فلسفات اجنبية تهدد الفكرة الاسلامية في الصميم ، نشأت فلسفات اسلامية يعود اصحابها الى تجديد التفكير في تفسير مصدر التشريع الاول . وحين يظهر التتار في المشرق ويستولون على بغداد ويزحفون الى الشام ومصر ، ويخرج الصليبيون والافرنج الى هذين الاقليمين تدب حركة التجديد مرة اخرى ، ويحاول مفكر مثل ابن تيمية أن يعود الى الاصل الاول يتلمس فيه تصحيح موقف الثقافة الاسلامية . ثم تعود الدعوة مـــن جديد في العصر الحديث حين يحتدم الشر بالامة الاسلامية من كـــل جانب وتتألب على الامة العربية قوى الطغيان والاستغلال والاستعباد.

في تقويم جهود المفكرين الدينيين من اصحاب هذا الاتجاه في العصر الحديث ، لا يملك المؤرخ الا الاعجاب باهتدائهم الفطري الى فكرة المعيار الاسلامي الجديد . ولقد يبدو ان اعمالهم لم تكن فـي جملتها الا استمدادا لاعمال السابقين من المفسرين . ولكـن اختيار الفكرة من بين عديد من الافكار التي يقدمها المفسر القديم وترجيـــح هذا الاختيار بالتعليل الواضح ، وتطبيق فكرة النص على ملابسات العصر الحديث ، وربطها بظروف المجتمع المعاصر ، وملاحظة الواقـع الحضاري الذي يعيشه المفسر ، كل ذلك عملية كان لها صعوبتهـــا ودلالتها على عقلية المفسر الجديد وتعبيرها الصادق عن موقفـــه من قضايا الانسان المعاصر في وطنه ، فضلا عن كونها جهدا جديـدا يضاف الى تراثنا الواسع . على ان اهم ما يسجله مؤرخ الثقافـة الاسلامية في مثل هذا المجال لهؤلاء المفكريـن انـهم بعثـوا المفهـوم الاجتماعي للدين بعثا ، بعـد ان عاش المسلمون قرونا يباعدون بين الدين والحياة بفعل عوامل مختلفة من التخلف الفكري والاقتصـــادي والسياسي .

لقد حققت جهود هؤلاء المفسرين اثرها في ضبط عملية الاستمداد الحضاري الذي نعيشه ، بعد ان زاد اتصالنا بالغرب وبافـــكاره وثقافته . وفي رأيي انه لو لم تتجدد هذه القيمة في حياتنا ، ولم يبرز الدين عاملا اجتماعيا هاما تتركز حوله شخصيتنا الحضاريـــة ومثلنا الاساسية لكان من الممكن ان يكون لهذا الاستمداد اثره المدمر على شخصيتنا الثقافية . ان عملية النقد الاجتماعي التي قام عليهـا مثل هؤلاء المفكرين اسهمت في عملية الضبط الحضاري الواعـــي وجنبت الامة فيما جنبت شر القلق والحيرة والضياع والتذبـــذب بين جديد لا يمت الى ماضينا بأية صلة وبين واقعنا النفسي الـذي يجذبنا بشدة الى تراثنا الحضاري الخاص .

ورغم كل هذا ، فانه قد يؤخذ على اصحاب هذا الاتجاه انهم افتقدوا احيانا عنصر المبادرة الى تصور حقيقي لبعض مشكلات الامة ، وان اشاراتهم تخلفت احيانا عن مستوى الاحداث وبقيت تابعـــا يكتفي بالتبرير لحركة الاصلاح القائمة دون ان يكون لها دور الريادة والتوجيه ، قد يؤخذ عليهم مثل هذا التقصير ولكن يبقى بعد ذلـك ان حركتهم كانت في الحقيقة استجابة اصيلة لكل ظروف بيئتهـم ، وان الخروج على هذه الظروف كان خروجا على سنن التطور .ويكفي ان جهدهم العظيم في احياء المفهوم الاجتمـــاعي للدين دور يذكره مؤرخو الحضارة العربية بكل تقدير . ويأتي الحديث بعد ذلك عـن اصحاب الاتجاه الثاني من المفسرين الذين يعنون بربط النظريـــة العلمية الحديثة بالنص القرآني . وكثير من هؤلاء المفسرين من غير رجال الدين التقليديين ، استهوتهم فكرة المزاوجة بين العـــلم والدين وشغفوا بخلق توازن سعيد بين المجالين . ولقد كـــانوا يصدرون عن مبدأ آخر هو محاولة البحث عن مركب ثقافي نستجمـع به شخصيتنا الحضارية بعد شتات .

كان مجتمعنا الثقافي يعاني ازدواجية حادة في الثقافة انعكست على مثقفيه ، ازدواجية حادة في التفكير والمواقف ، وكان هذا مـــا يشبه الهوة بين الفكر الديني الذي يرتبط بماضي الامة ، والتفكير العلمي الحديث الذي يمثل حضارة الغرب . واخطـر مـن كل هـذا اننا اخذنا نقيس واقعنا الاجتماعي ، ونقارن في ضوئه ماضينا بمـــا يسحر ابصارنا في حاضر هذه الامم الغربية . ونشأ عن ذلك فـــي نفوس كثير من مثقفينا موقف نفسي متناقض بين اعتزاز بتاريخنـــا الماضي المصل بأعماقنا ، وثورة على حاضرنا المتخلف ، وبين ولـــع شديد بحضارة الغرب التي لم نستطع ان نأخذ عنها الا جانبها المادي الظاهري ، حتى خيل لبعض الباحثين ان العالم الاسلامي قد فقد كفايته الذاتية لاول مرة في تاريخه ، فبعد ان كانت الثقافة الاسلامية مركبا متوازنا من الجانبين العلمي والصوفي في الحياة بدا العـالم الاسلامي يعتمد على غيره في شؤون الحياة من حرب وتجارة وصناعة، ولقد كان عسيرا عليه ان يفقد باطنه كما فقد ظاهره فضلا عن انـــه نقل عن الغرب ظاهره دون باطنه حتى اصبح المركب الثقافي فـــي العالم الاسلامي اسلامي الباطن غربي الظاهر ، وبهذا تحطمت الوحدة الثقافية فيه في رأيهم . في سبيل استجماع هذا المركب الثقافي في وحدة متزنة ، حاول بعض المفسرين الالحاح على استخراج المعاني العلمية لبعض الآيات القرآنية في الكون والحياة هادفين بـــذلك الى ان يربطوا بين القرآن بوصفه القاعدة الثقافية للامـــة الاسلامية والعلم الحديث بوصفه اعظم ما تدل به المدينة الغربية .

وقد انقسم العلماء في بيان موقف القرآن من العلم : قسم يأخذ بتحكيم المصطلح العلمي في التفسير ، وحمل العبارة القرآنيـــة على وجه يطابق ما وصلت اليه علوم العصر ، والقسم الثاني ينكـر هذا الاتجاه ويفرق بين الحقيقة الدينية والنتائج العلمية .

ولا نريد ان نخوض في حوار طويل مع أحد الفريقين ، فهـــذا لا يسمح به المقام ، وانما نتساءل عن طبيعة الدور الثقافي الـــذي اضطلع به هؤلاء المفسرون من اصحاب النزعة العلمية في التفسيـر ودلالته الحضارية .

ينبغي اولا ان نسجل ان الاتجاه نحو التفسير العلمي يتزايـد مع الزمن وانه يلقى رواجا مشهودا بين القراء ويتدرج الى مزاحمة الالوان الاخرى من التفسير حتى ليكاد يخلو له الميدان اليوم سـواء أرضي مفكرو التفسير العلمي ام لم يرضوا عن ذلك .

بدأ التفسير العلمي حييا خافتا ، وكان الاصـل فيه ان القرآن لا يمكن ان يحتوي على تعليم يتعارض مع حقائق العلم ، وتدرج ذلك الى الاعتقاد المبهم بأنه يشتمل على النظريات العلمية للقرنيـــن التاسع عشر والعشرين ، ثم اخذ بعـد ذلك بعض المفسرين فـــي تفصيل لبيان هذه الدعوى حتى كان الطنطاوي جوهري شيخ المفسرين بالعلم الحديث في مصر .

تفسير هذا التطور يتصل باحساس المفسر الحديث الذي يريد ان يصل ماضيه الروحي بخير منجزات العصر الحديث . ان العـلم الحديث الذي يمثل قمة الحضارة الغربية في نظر المفسر يصـــادف لديه هوى دفينا لا يفوقه الا تعلقه بثقافته الروحية المتمثلة فـــي القرآن ، ولذلك فانه ينشط الى خلق هذا المركب الثقافي بيـــن القرآن والعلم ويضبط قراؤه كثيرا حين يوفق الى تحقيق توافـــق ما بين هذين المصدرين . وهذا التوافق يسعدنا لانه يخلصنا مـــن ازمة التخلف التي ظلت تؤرقنا طويلا ، ولكن المفسر الذي يتنـــاول النص القرآني بهذا الاحساس قد يضطر الى مجاوزة الحدود التـــي تحتملها الفاظ النص الكريم لانه يحس بضرورة متابعة العلم فـــي مجالاته المختلفة مع ان كثيرا من حقائق العلم مؤقتة قابلة للتغيـــر وتتكشف يوما بعد يوم وحينئذ يكون التعجل في تلمس المطابقة بيـن القرآن والعلم تعجلا غير مشروع .

على ان التوفيق والاعتدال في تلمس هذا التطبيق قد يخـــدم في الحقيقة الجانب النفسي من المسلم المعاصر ، ويجدد من حيويـــة الدين في نفوس الناس ، ويخلق توازنا سعيدا بين عقـل الانسـان وقلبـــه .

عفت محمد الشرقـاوي